الفصل العشرون

تثليث الأعلى

شمخت قمة قرن سبط على ارتفاع ٧٦٠٠ قدم فوق سطح البحر. كانت القمة مخروطاً بركانياً قديماً، ولم يكن تسلق سفحها المنحدر البازلتي أمراً صعباً، إلا أن الصخر المعدني قد أثر بفعل بحقله المغناطيسي على بوصلتي التي بدأت تعمل بأسلوب غريب مما فرض عليَّ أن أصرف النظر عن قيمة اتجاهاتها. كان اتجاه قرن سبط من عند قلعة بدر هو ٣٠٢ درجة بينما كان الاتجاه المعاكس من قرن سبط إلى بدر هو ١٠٨ درجة بفارق أربعة عشر درجة. كانت صخرة البازلت ممتدة في طبقات عمودية ومن ثم برزت من فوق القمة غير أن البوصلة بدأت تعمل بأسلوب عادي حينما استخدمتها في الجزء المسطح الذي تكسوه الرمال. كان عليَّ، على كل حال، أن أراجع ملاحظاتي في النجوم لأتحقق من تقلبات بوصلتي، غير أنها كانت تجربة مربكة في حينها. لقد مررت بالظاهرة نفسها من قبل في المخروط البركاني لقرن القاع بالقرب من طريب، الذي يمكن رؤية بعض تلاله البارزة من هنا: منها أم القصص والعر، إلاَّ أنها ليست واضحة تماماً.

تقع إلى مسافة ناحية اليسار السلسلة المرتفعة لقعم العبيدة (سلسلة أحد) التي كنا قد رأيناها من عند أبها وخميس مشيط، والتي تواصلت جنوباً لسلسلة مشابهة مسطحة بركانية مع زوائد من حين لآخر منها: مشرفة، ونطفة، ومسورة على الجانب الغربي لحوض تثليث الأعلى الذي يمتد أمامنا والذي سندخل إليه سريعاً. ينحدر مجرى شعيب رحة من عند مسورة إلى الجنوب الشرقي من موقعنا، فوق

قاعدة تلال عالية ماراً بالبلدة الصغيرة الـتي تسمى حرجة (تقريباً غرب قرن سبط) ليصبح باسم وادي الفيض والذي بدوره يتصل مع وادي القصب في قرية القصب، التي يملكها آل حرّان والجبرة التابعان لسنحـان قحطان، ثم يصبان في مجرى واحد عبر مضيق يسمى «مضيق» وبعد ذلك يطلق عليهما اسم «تثليث». ينحدر في هذه الأرض المتقلبة، إلى الغرب من هذا الشريط، وإلى تلال عـبيدة الرافدان العظيمان وهما العـرين وطريب. يشترك وادي القـصب نفسه مع وادي ثار في حـد فاصل حيث أنه يمثل استمراراً لوادي ضحل يسمى بياض وهذا بدوره يمثل استمراراً لمسيل يسمى خويس ينحدر من عند الفاصل فوق الشفة الشـمالية للهضبة العالية. توجد في مجرى بياض مجموعة من القرى عبـارة عن مجمع وقمم جرانيتية بارزة تسمى اضكر ينتهي الطريق من بدر إلى هذا الموقع فـجأة على حافة هضبـة الحجر الرملي أسفل قرن سبط –حيث تميل الهضبة نفسهـا لتصرف مياهها جنوباً وشرقاً. ينساب كل من خويس ومسيل آخر صغيـر يسمى وقرة فوق الحافة إلى حوض تثليث. كنا هنا على القاسم المؤثر بين حوض تثليث وحبونا. نستطيع الآن رؤية شثاث والتلال العديدة الواقعة إلى ما يلي ظهران.

بدأت تهب علينا رياح شديدة البـرودة ونحن فوق تلك القمة المكشـوفة بينما كنت أنسخ النقوش الـعديدة التي كانت على صـخورها، كنا سعـداء ونحن نغادر القمة ونعود إلى المعسكر وذلك قبل غـروب الشمس. لم يبرهن مرشدي عوض، وهو من أبناء شريف سنحـان، جدارته كمساعـد لي حيث أنه لم يفعل شيئـاً غير العمل العادي في حدود معلوماته عن بلاده وكان يعتـقد بأن الأشياء البعيدة ليست ذات أهمية لتثير التطلع إليها. استطعنا الإمساك بحرباء أثناء النهار والتي بدأت في وضع أعداد ضـخمة من بيـضها ونحن نعد العـدة لإدخالها إلى زجـاجة الموت.

وضعت مع تقدم الليل ١٩ بيضة، وفي الصباح، وهي لا تزال حية، واصلت وضع البيض. بدأنا نتفقد الهلال الجديد لرمضان بعد وصولنا إلى المعسكر، غير أننا لم نره بسبب وجود شريط من سحاب نحاسي اللون متدنياً فوق السماء الغربي. لقد كان كل من الزهرة والمشتري مقتربين من بعضهما وكان ذلك نهاية مناسبة لليوم. لقد تأجل صومنا ليوم آخر. إلاَّ أنني لاحظت أن رجال يام القائمين على العناية بالجمال كانوا قد بدأوا بالفعل صيامهم في بدر (١٤ نوفمبر)، لعل ذلك كان استجابة لتوجيهات من أحد وكلاء المكارمة. إنهم يكملون بذلك يومين من شهر الصيام قبل أن نبدأ نحن برغم أنه من الواضح جداً أن الهلال الجديد كان لا يمكن رؤيته في الثالث عشر من نوفمبر. كان ذلك، على أي حال، أمر خاص بينهم وبين الداعي، وكانوا بالتأكيد ملتزمين بالصيام. أطبق الليل مع رياح غير طيبة وقد امتلأت السماء بالسحب، كان العراء المكشوف بارداً دون ملجأ، غير أنه لم يكن هنالك صقيع.

يقع قرن سبط على بعد ميل واحد عند طرف الهضبة العالية وفي شريط عريض صافٍ، والذي قد تآكل من فوقه الشريط النحيل للصخور الرملية، أو أنه قد غسلته الأمطار من فوق سطح الصخور الرسوبية التي تقع أسفله. كانت الجلاميد الخارجية للهضبة من البازلت والجرانيت وهي مبعثرة في اضطراب شديد لتمهد مجرى للعديد من الجداول فوقها، والتي تصب مياه الأمطار من خلالها داخل شريط الصرف الرئيس الذي يقع إلى أسفل. توجد عند قواعد هذه المسايل وكذلك في المجاري الكبيرة الكثير من القرى الصغيرة التابعة لسنحان قحطان، وتكون عادة في مجموعات صغيرة. هبت علينا رياح باردة لاسعة من جهة الشرق. فتوقفنا لفترة عند رأس مسيل أثبة، حيث رغبت في مراجعة بعض

اتجاهاتي من عند القمة المغنطيسية. اتضح لي أن الاتجاه من هنا إلى ناحية العر، مثلاً، كان ٣٢٢ درجة بدلاً عن ٢٩٧، وهو فارق ٢٥ درجة. امتدت حافة الهضبة من هذا الموقع وعلى يسارنا ناحية الجنوب الشرقي مسافة ثلاثة أميال ثم اتجهت ناحية الجنوب الغربي في أرض صعبة تسمى إعضار والتي يتصرف ماؤها جنوباً عن طريق شعيب مقم الذي يصب بدوره في شعيب أم تره، الذي ورد ذكره، كواحد من رؤوس حبونا. تتجه حافة الهضبة، على يميننا، بعد امتدادها إلى مسافة نصف الميل تجاه الشمال الغربي. إلى جهة الشمال الشرقي لتختفي في الفضاء البعيد قبل أن تدور جنوباً. يقوم مسيلان رئيسان هما أجوف وخويس بتصريف مياه الصخرة إلى كل من شعيب سميكة، الذي يقع تحت أرجلنا، وإلى وادي قصب بالتتالي.

وصلنا بعد سير صعب على الأقدام مدة نصف ساعة إلى شعيب سميكة عند ملتقى كل من عثبة وأجوف، من حول الرعن المنحدر الذي نزلنا منه. تكسو سميكة شجيرات جافة خفيضة وبعض شجيرات الطلح وكان الوادي دافئاً بشكل مريح مقارنة بالبرودة الشديدة في أعلى الجبل. لقد لاحظت أكواماً كثيرة من الحجارة على الطريق، ربما كان قد وضعها جامعوا الحطب المحليون، هذا الحطب الذي ينقل معظمه إلى سوق حرجة، وذلك لوضع حمولتهم عليها أثناء توقفهم لتهدئة أنفاسهم قبل التقاطها مرة أخرى دون الحاجة إلى الانحناء. يحمل ناقلوا الملح في الهند معهم عصاة ذات قمة مسطحة للغرض نفسه. بدأنا نرى طلائع مزارع مجمع عند منحنى الوادي، حيث يدخل مسيلان وحيث كانت الصخور مغطاة برسوم لحاملي الرماح، وسرعان ما وصلنا إلى أولى قراها الصغيرة واسمها آل قنعة على جانب الوادي الأيسر. تقع عرق بن مسلم من وراء قنعة وعلى الجانب نفسه، وهي قرية أكبر قليلاً إلاَّ أنها مخربه تأتي قرية آل حاجب في مقابل

عرق بن مسلم على الجانب الأيمن، بينما تستقر مجبه إلى أسفل قليلاً وعلى الجانب الأيسر وفي قسمين داخل حضن وتر مهيب من صخور جرانيتية. تقع آل جحيش خلف عرق بن مسلم عند قمم شعيب وقرة في موقع دخوله سميكة من جهة الغرب، ويكتمل المنظر بوجود مزرعتين فيهما بئران هما: بئر جلا وبئر الوادي. كانت هذه هي قرية مجمع الواقعة في شعيب سميكة الذي ينساب شمالاً ليتصل مع منخفض بياض. تسمى الصخور الجرانيتية الجميلة باسم تضكر. كان معظم سكان مجمع غائبين حين وصلناها لذهابهم لسوق الأحد في سرم ، ولذا يبدو المكان مهجوراً ومنعزلاً إلا من بعض النسوة وقد علمنا أن الناس هنا قد بدأوا صيامهم في اليوم السابق بأمر من المكارمة! كان أهل مجمع يتبعون سنحان، وكان من المثير أن نجد التأثير الديني للمكارمة ينطبق على إقليمهم. كانت مجمع قرية صغيرة بائسة بها بعض حقول الذرة الصفراء وبها الكثير من الأثل وبعض مساحات للتين البري والرمان.

واصلنا السير مع وادي سميكة مدة ربع الساعة إلى جزيرة ضخمة من جلاميد جرانيت رمادي تسمى حريمة تعلّم رأس أرض يسمى بياض – وهو عبارة عن فرجة واسعة بين مجموعة من تلال حجرية أكثر منه وادياً، إلاَّ أنها تحمل معها إلى أسفل استمرارية مجرى سميكة وهو يجري عبر مساحة زراعية أخرى متجمعة حول عدد من القرى الصغيرة تابعة لآل حيان (سنحان). يندمج بياض، عند النهاية البعيدة، على مسافة تجاه شمال الشمال الغربي مع وادي القصب، والذي لم تكن قراه مرئية لنا من هنا، برغم أنني قد رأيتها من قمة قرن سبط. تنتمي قريتاه الرئيستان وهما آل حران وآل الجبرة إلى سنحان وعبيدة بالتتالي. لقد تسلقت إلى قمة الكتلة الجرانيتية، مزعجاً أثناء ذلك بحركتي هذه ثعلباً، وسرباً ضخماً من

حمام الصـخور، وأسراباً صغـيرة من طائر «الحجل» ومجـموعة كبـيرة من طيور السوَّادية. كان الارتفـاع عند القمة ٦٧٠٠ قدم فـوق مستوى البـحر وكان الوادي على مسافـة ٢٠٠ قدم إلى أسفل، وعليه نكون قـد هبطنا إلى ٧٠٠ قدم من عند مستوى الهضبة، وكانت الأجواء هنا دافئة ومريحة بما فيه الكفاية مما يؤمن لنا وقفة طويلة في منتصف النهار.

نظرت من عند القمـة إلى قرية بائسة، وإلى مـا حولها من منظر غـير منظم لصخور وتلال في هيـئة يصعب تصورها. لا يمكن الخـروج بأي نظام جغرافي من هذه الفوضى. كـان عرض حوض بياض حـوالي نصف الميل غير أن مـعظم قراه الصغيرة تقع على شـريط المجرى الفعلي الضيق للسيول. تقع قرية ثغـر الصغيرة، وهي الأقرب إليَّ، على بعد ربع الميل وبها ستـة منازل فقط. كانت قرية الشويكة والتي تلي ثغر هي القرية الرئيسة وبها ٢٥ منزلاً. وتوجد مزرعة ذات بئر مع اتجاه الوادي على بعد نصف الميل تسـمى بئر بغدادي، وبئر أخـرى اسمها بئـر شويطر على مسـافة نصف مـيل آخر. كان ذلك هو كل مـا يمكن مشـاهدته، إلى جانب أرض لزراعة الذرة الصفراء والقمح والشعيـر، ومجموعات قليلة من أشجار التين والرمان. لقد أطلقت رصاصة أثناء نزولي للحـاق برفاقي وهم يستريحون في ظل الصخـور عند سفح التلال صوب سـرب حمام بني وأسقطت أربعـة منها، والتي كانت إضافة نرحب بها لإثراء وجبة الغداء.

يتكون رأس بياض من اندماج كل من وادي شـعيب سميكة وشعيـب جييرة ويأتي هذا الأخير من جهة الغرب. وقد سلكناه لمواصلة مسيرتنا المتكاسلة، بعد أن سبـقتنا في بداية السيـر جمال العفـش بمسافة ساعـة كاملة. كانت طيـور الحجل والسيسي كـثيرة هنا وبشكل مدهش، خاصـة بين الجلاميد الجرانيتـية والتي ملأت

الوادي في سلاسل وأكوام والتي سرنا بينها بصعوبة، وكنا نمشي أحياناً بدلاً من أن نكون راكبي الجمال وذلك حسب صعوبة الممر الذي جاهدت فيه الجمال بحق. يسمى الجزء الأعلى من جيرة باسم جنب، وينحدر من عند السلسلة التي تقع على يسارنا برفقه عدد من الرعنات المنتشرة شمالاً لتتصل كلها مع الأرض الجبلية التي تقع على اليمين من موقعنا. مررنا بمجرى ازبيات أثناء خروجنا من جنب وذلك لعبور هذه الرعنات، والذي بدوره سيلتقي مع جنب بعيداً إلى الأسفل. لقد قابلنا في الطريق مجموعة من القرويين وهم عائدون من سوق الأحد الذي أقيم في وادي سرم الذي يقع أمامنا. أوصلتنا سلسلة أخرى متعارضة ومنخفضة إلى شعيب مقصر وهو أحد روافد أزبيات الذي كنا قد سلكناه باتجاه أعلى الوادي إلى سفح بجلاميد ووصلنا إلى ما يليه إلى مزارع وإلى قريتين توءم هما نسلة وآل نزيه ويسميان معاً «آل عرف» وكلاهما في مسيل سواد. كانت فعلاً قرية واحدة ومنظارية جداً، تقف على سلسلة من جلاميد جرانيتية، والتي نهبط من عندها إلى تفرع المسيل إلى حيث حقول الذرة الصفراء التي تصل إلى الطرف المقابل. يجري من هذه النقطة خط صرف آخر يسمى جنب إلى داخل سواد من جهة الجنوب، ويتجه سواد نفسه إلى مقصر ومنها إلى أزبيات ثم إلى وادي القصب فيما يلي أزبيات.

وصلنا بعد مسيرة خمس دقائق من جنب إلى مجموعة من أربع قرى صغيرة إحداها كانت مدمرة وبلا اسم بينما كانت أسماء الثلاث المتبقيات هي وسط، وعرق ورزقة بهذا الترتيب إلى أعلى. لقد كانت هذه القرى، بالإضافة إلى حفير، ذات أهمية قليلة على الرغم من ازدهار أشجار التين المزروع منه والبري (حمط وأثب) بين الحقول المبعثرة، كما يوجد في حفير نفسها أبراج جيدة. وقفت قرية

كبيرة عند ملتقى شعيب حبية مع جنب، تسمى قرناً وفيما يليها قرية معذب وقرية وبئر ورخة، وقد امتلأ الوادي في هذا الموقع ومن الجانب إلى الآخر بحقول القمح والدخن والبرسيم. توجد مزرعة بئر أخرى، تسمى بئر ابن رزقة إلى أعلى وبها قلعة مبنية على هضبة صغيرة مرتفعة، ويبدو أنها تعلّم الخط الفاصل بين قريتي آل عرف التي تقع وراءنا الآن، وقرى آل جشمة التي تقع أمامنا. تواصلت المزارع ترافقها أبراج مراقبة نحيلة متكررة تحيط بالحقول.

مررنا بآل ساري وآل هادي بالتتالي لنصل إلى آل جشمة نفسها وهي على جانب الوادي الأيمن، وتقع آل زرقان على الجانب المقابل لها، وكانت هذه القرية التؤام آخر قرى شعيب جنب، الذي يتصل به هنا عند رأسه مسيل عبب القادم من جهة الغرب، والذي توجد فيه بعض الحقول كما يوجد فيه بئر تنتمي إلى مجموعة آل زرقان. واصلنا سيرنا من هنا إلى أعلى حوض عبب الضحل، العاري، إلى حيث ممر من أرض صخرية ينتهي في مضيق الذي كان على ارتفاع حوالي ٧٠٠٠ قدم أو تقريباً على مستوى الهضبة العالية. ثم هبطنا من عنده إلى مسيل شعيب حمطة ناحية الغرب ومدة عشر دقائق إلى حيث الموقع الذي ينحني فيه بشدة إلى جهة الشمال، تجاه شعيب سروم الذي يذهب بدوره إلى وادي فيض. يكوّن مضيق عبب (أو حمطة) هذا، تبعاً لذلك، الرأس الأعلى للنظامين التصريفيين وهما فيض والقصب، اللذان يتحدان في الأسفل ليكونا وادي تثليث، غير أن فيض، كما سنرى، ما هو إلاَّ استمرار لوادي دحة، الذي يحمل بدوره تثليث إلى الخلف إلى منبع بعيد.

تهمني دراسة شعيب حمطة، برغم أنه غير مميز وكئيب المظهر، لقد عبر درب الفيل المشهور من هنا، عند منحنى حمطة قادماً من الشمال عبر قرى فيضة وعلى امتداد شعيب صرم (حيث أسواق الأحد)، ومن فوق طريقنا هذا، صاعداً إلى

الهضبة العالية عن طريق مسيل رافد ضحل ومنه إلى طلحة، وإلى ظهران، وإلى سهل حمد فيما يليها. لقد رأيته آخر مرة عند طريب. ولا يوجد ما يميزه هنا غير ذكراه الحية. من المدهش تأمل عمق تأثير درب النيل على الروايات المحلية القديمة في أعماق الناس هنا، الذين قد نسوا تماماً كل شيء غيره.

يواجهنا الآن صعود صعب إلى حيث مضيق آخر، يقع على الارتفاع نفسه كما في عبب، التي نزلنا من عندها إلى رأس شعيب سروم نفسه، حيث توجد مجموعة أخرى من قرى صغيرة ومن حقول. يدخل مسيل بقم إلى سروم من جهة الجنوب الغربي، وتكون مجموعة القرى الصغيرة ومجموعة الحقول في هذا الموقع ما يسمى بالديرة، عند الرأس الفعلي لسروم في سلسلة منشار على بعد ميل واحد إلى أعلى من عند طريقنا، وتقع آل حامد على يميننا وتتكون من كل من ابن حقة (التابع لآل زمر) وآل زاهر بالقرب من فم بقم. تعرف كل هذه القرية الصغيرة باسم الصدر أو الرأس (لسروم). يهبط بقم من عند السلسلة البركانية المنفصلة التي تسمى قعمة القلح البارزة من بين الحاجز الرئيس من خلف مجرى وادي رحة. لقد تتبعناه قليلاً إلى مسافة قصيرة فقط قبل أن نصعد إلى أرض ذات منحدرات على امتداد مسيل سوس، الممتلئ بأشجارالطلح. ثم ترجلنا عن دوابنا لنسير على الأقدام إلى أعلى السفح المنحدر إلى رأسه الذي يرتفع حوالي ٧٢٥٠ قدماً فوق سطح البحر، أو على مستوى معسكرنا عند سفح قرن سبط، والذي من الممكن رؤيته الآن ناحية الشرق من موقعنا.

غربت الشمس الآن، وواضح أننا لن نستطيع الوصول إلى حرجة هذا المساء دون أن نترك عملاً كثيراً أود أن أقوم به في هذه المنطقة المتشعبة من البلاد، لا توجد إشارة تدل على جمال الحمل التي كانت قد سبقتنا، ويبدو أنها ضاعفت

الخطو للوصول إلى قدور اللحم في حرجة قبل موعد الإفطار. كان من الممكن لنا أن نتركهم يذهبون ونعسكر في استقلال عنهم لولا أن ساعاتي الكرونومتيرية كانت معهم ولا بد أن يعبأ نابضها. لقد أرسلنا رسولاً لإحضارها وتحرك بقية الفريق إلى الأمام إلى أسفل شعيب قليطة بحثاً عن موقع مناسب للمعسكر إلى جوار مرعى للحيوانات. كان علينا أن نصعد المضيق التالي لنجد مثل هذا الموقع، والذي وجدنا في أسفله قطعة أرض ذات شجيرات في مسيل يسمى شعيب غربان في وسط جلاميد جرانيتية.

وصلت جمال العفش إلى صرحة ولم تعد إلينا إلا عند الساعة ١٠,٥ ليلاً، وقد قادها ناحيتنا ضوء مصباحي والذي يمكن رؤيته من عند السلسلة الثانية، وقد سعدنا كلنا بذلك، خاصة شخصي. لقد تم إنقاذ ساعاتي، والآن يتطلع رفاقي إلى وجبة طعام، ذلك لأنه لم يكن معنا شيء إلا تمر جاف صلب، وهو التموين الراتب العادي لرجال جمالنا، وقد كنا نجلس من حول النار لنشويها كأنها اللوز وذلك لنجعلها مستساغة للأكل. كان التمر بعد تليينه بهذا الأسلوب لذيذاً مع تناول الشاي معه.

نظر إلينا المبذرون العائدون نظرة عتاب وهم ينصرفون إلى مواقعهم في المعسكر دون أن ينبسوا بكلمة. ولقد رأيت بدوري أن ألزم الصمت أيضاً، ذلك لأنني كنت المسؤول عن إعادتهم من عند مشارف وليمة إفطار رمضان. شاهد فرج في هذه الأثناء الهلال الجديد لرمضان، وقد فاتني أن أنتبه لذلك، إذاً يبدأ غداً صيامنا. لم يتم إعداد وجبتنا البسيطة الخالية من اللحوم إلاَّ قليلاً قبل منتصف الليل، غير أنه إدراكا بأن أعمالي في موضوع النجوم غير ضرورية في مثل هذا المكان، فقد استمتعت بالجلوس حول النار بلا عمل.

لم يكن هنالك صقيع أثناء الليل، غير أن رياحاً شرقية باردة كانت تهب في الصباح عندما واصلنا مسيرتنا ونحن صائمون. وصلنا إلى المضيق بعد مسيرة دقائق قليلة، وتوقفنا عند السلسلة التالية له مدة ساعة ونصف الساعة لتسجيل كل التفاصيل عن المنظر الجديد. لقد نظرت إلى أسفل من عند ارتفاع ٧١٠٠ قدم فوق سطح البحر، إلى حوض وادي رحة، أو رحة سنحان كما يسمونه محلياً. كان المشهد العام لوادي مرتفع ممتلئ بالأشجار يخترق من جهة لأخرى، العديد من المسايل والمصاريف ويعترضه مجرى واحد رئيس يرتفع إلى ٨٠٠٠ قدم أو أكثر من صخور داكنة بركانية تقف على قاعدة مربعة لصخور متقطعة محمرة اللون الأبيض. كما يمكن رؤية جزء من حرجة نفسها من عند هذا الموقع، وهي ليست بالبعيدة، ولما كان كل فرد الآن صائماً، فلا ضرورة للإسراع.

يدخل وادي رحة، الذي ينساب على امتداد قاعدة سلسلة جبال بعيداً ناحية الجنوب، إلى الحوض العظيم الذي أمامنا، من بين سلسلة جنعان على جانبه الأيسر وسلسلة قعمة القلح عند قرية آل الطويل عند ملتقى مسيل صغير قادم من ناحية الغرب مع المجرى الرئيس. ينساب هذا الآن إلى أسفل عبر حقول آل نجيب المرقطة بالبروج إلى ناحية القرية المتوسطة الحجم التي تسمى بحير وتقع إلى الجنوب الغربي لطريقنا المتجه إلى حرجة.

يمر الوادي بعد ذلك في منحنى عريض لمجراه الكثير الأشجار ليتصل به وبالتتابع، كل من شعيب ولج الهابط من عند مضيقنا هذا، والمجرى المشترك بين قليطة – غربان (يسمى مضرة) والذي يدور حول السلسلة على يميننا ومن خلفنا. كانت كل هذه النقاط تبعد مسافة ميلين ونصف الميل وميلين في خط مستقيم من عند المضيق من هنا. يمر المجرى نفسه، عند قرية سويد، على بعد ثلاثة أميال

وبقربها يوجد بئر أم قطرة داخل مجال رؤيتنا وهو في طريقه إلى فيض. تقع قرية ضيار، إلى الغرب من موقعنا، داخل مسيل يجري بين جوعان ونتفه، ثم يستمر هذا المسيل ماراً بقرية سلعان الصغيرة وحرجة نفسها ليتصل برحة وذلك بعد مروره بقلعة قديمة تسمى أشرف تقع عند قدم الصخرة الجبلية. يوجد مصب آخر يقع بعيداً إلى ناحية الشمال يسمى شعيب جريدة حيث توجد قرية حجراف على تل في وسط الحقول، وقرية آل حجر عند التقائه مع رحة حوالي ميلين ونصف الميل من موقعنا. يخرج شعيب محله من عند نتفة وبه قريتان صغيرتان تابعتان لآل سرفان وحصونهم المبعثرة، من عند الحاجز الجبلي عند قرية آل زاهر ليتصل مع رحة في سويد. يأتي بعد ذلك في الترتيب شعيب شعف وتقع قرية آل محيرث في مجراه ليتصل مع الوادي الرئيس أسفل سويد.

كانت كل هذه خطوط تصريف صغيرة نسبياً، غير أن الخط التالي الذي يتبع من عند الحاجز على بعد ستة أميال غرب الشمال الغربي كان ذا أهمية عظيمة. أنه وادي يعض والذي لم أقم بزيارته والذي قيل إنه يجري لمسافة طويلة بين أحضان الجبال والذي تقع عليه قرى عديدة والتي نرى منها واحدة فقط من هنا هي آل التيس وهي عند مخرجه ناحية مشرف، وهي عبارة عن مخروط بركاني عند طرف السلسلة.

يحضن وادي يعض الصخور من هنا ويمر من الجانب القريب بالمخروط البارز المسمى قرن الخبط تجاه الشمال الغربي من موقعنا لكي يعبر من خلال التلال المنخفضة ليتصل مع رحة عند أعلى موقع التقائه مع وادي فيض. يمر يعض في موقع ما بين آل التيس وموقع التقائه مع رحة، عبر القرية المهمة التي تسمى آل دليم، مقر إقامة رئيس سنحان الذي يشغل مركزاً إداريا في الحكومة السعودية

بصفته أميراً على كل بلاد سنحان، مع بعض القيود في أمور المالية والقوانين الشرعية. تتجمع القرى في هذا الوادي داخل الحاجز الجبلي تحت الاسم العام شريف. يمكن رؤية العر وسلسلة قعم عبيدة، ناحية الشمال الغربي، في اتجاه طريب.

ذكرتني البلاد التي تنتشر فيها الجلاميد الصخرية والتي نزلنا من عندها الآن، بمحيط الطائف. وصلنا خلال عشرين دقيقة إلى مجموعة قرى صغيرة، منها قرية بحير وقرية بصرة، وقرية آل نجيب، وقرية فطيس، وقرية قلعة، وقرية آل صعب، والعديد من الأبراج في أرض زراعية واسعة عند منفرج مسيل سد إلى أسفل ناحية الجانب الأيمن لرحة نفسها حيث توقفنا لفترة وجيزة على صخرة ارتفاعها ٤٠ قدماً من جرانيت مكشوف تطل على القرية المبعثرة والمحطمة. كانت المزارع متواصلة ومستمرة فعلياً من هذا الموقع إلى حرجة نفسها على بعد ميل واحد فقط، وقد مررنا بين حقول محاطة بالحجارة، وكلها كانت تبدو مهملة ومهجورة غير أنها منتجة وذات محاصيل جيدة وذلك استجابة طبيعية لسيول جيدة، ذلك لأن هذا المزج بين الصخور الجرانيتية والبركانية ينتج عنه عادة تربة خصبة. كانت حرجة نفسها خارج خط الوادي عند منفرج مجرى تابع لها والذي كنا قد أقمنا معسكرنا في بطنه عند الساعة الواحدة مساءً بعد مسيرة قصيرة في يوم كان كثير العمل.

كنا محظوظين أن نصل إلى هنا في يوم السوق المحلي، ففي حرجة تقام السوق أيام الإثنين، وكان المكان مزدحماً بالزوار من الريف المجاور. كما يتوقع المرء منهم معظمهم من القحطانيين التقليديين، زبدة فرسان القبائل العربية، غير أن النسوة كن أقل ظهوراً في الأسواق مقارنة بنجران، واللاتي يأتين للسوق منهن كنَّ

أكثر تحـفظاً من أخواتهن في يام. وصلنا بالطبع إلى السوق في وقت متـأخر وكان السوق قد بدأ يتفكك. كان هنالك تجمعاً لا بأس به في السوق، مع ذلك، والذين قد بدا عليهم الاهتمام العميق بشخـصي وبتحركاتي. فأينما ذهبت تبعني فيلق من المتفرجين، غيـر أنني استفدت من هذا لأبعد الحدود، فقد كـانوا على استعداد تام للإجابة عن أي سـؤال أوجهه لهم، غير أنهم كـانوا متشككين ومتـخوفين من آلة التصوير. كانوا رجالاً مكتملين قويين، ذوي مظهر أرسطوقراطي أكثر من أولئك، قاطعي الطريق السابقين في يام.

استمعـت إلى شكاوى من كل الجهات تدور حول الفقر والبـؤس الذي تعانيه بلادهم ويعزى هذا إلى حـقيقة أن العـربي الحقيقي الـتابع لقبائل عظيـمة لم يكن إطلاقاً مزارعاً. ينظر هذا العربي إلى الزراعة بأنها مهنة تناسب العبيد والخدم، وأن الأرض ستنتـقم منه. كان على الأيدي العاملة المؤجـرة أو المكرهة أن تستفـيد إلى أقصـى حد من الأرض ومن الماء المتـوافر، ولا يوجـد رأس مال مـتوافـر لتطوير الوسائل الزراعية لاستغلالها. ونادراً ما كان يتم حفر آبار جديدة، ونادراً ما كانت تصان السدود القـديمة، والمساطب والقنوات، فضلاً عن تمديـدها. كان على ملاك الأرض أن يقبلوا بما منحـهم الله، وقد تكون المنحة أحـياناً كافـية بالكاد، وتكون أحياناً في وفرة عظيمة.

لا توجد وسائل مواصـلات لنقل الفائض إلى الأسواق المربحة، وإذا تم ذلك فهو بتكلفة عالية. كانوا بصفة عامة يعيشون بأسلوب الحياة من اليد للفم ولم يكن هنالك فائض لثـروة حقيقيـة. وقد اتجهوا -تبعـاً لذلك- إلى الحكومة وشكوا من انصرافها عنهم وعن الاهتمام بشأنهم. وقد اعتقدوا بأسلوب غامض بأن حضوري

لهم مع تبريكات ابن سعود هو تنبوء لهم بمستقبل أفضل. كان المخزون لغرض التجارة لهذا السوق كما هو في أية مكان آخر هو تلك البضائع التي تباع بالقطعة وهي رخيصة الثمن، والتوابل الضرورية وما يباع في البقالات، والمنتجات المحلية، برغم أن التمور كان بنداً بارزاً وذلك لأنه غائب.

باشَرَت الحكومة السعوودية قبل فترة سبقت هذه الأيام العمل بتجربة الإدارة المباشرة لمنطقة سنحان، وقد أوفد إليها أمير من الرياض واسمه عبدالله بن عثمان. وسرعان ما دخل عبدالله في خصومات مع العادات المحلية ومع شيخ القبيلة المحلي وقد تم إعادته حديثاً. لقد جاء دليم بن دليم خلفاً له ودليم هذا هو شيخ السنحان الذي كان قد منح لقب أمير على منطقته القبلية وكان مقر عمله الرسمي هو حرجة، حيث بقي معه عدد قليل من كتبة الخدمة المدنية من الإدارة النظامية وذلك لأداء العمل المالي والدخل الضروري، بينما تم تعيين قاضٍ جديد لتنفيذ العدل طبقاً للشرع. لقد ترك كل ما عدا ذلك لصلاحيات دليم، ولم تواجهه مشكلة في إدارة أمور قبيلته.

كان دليم مشغولاً في المجلس حين وصولنا، ينظر في الدعاوي العادية الموجهة لعناية الأمير في أيام الأسواق، وبمجرد استقرارنا في معسكرنا ذهبت ومعي فرج لزيارته. لقد كان فعلاً بمظهر الرئيس لقبيلة عربية فهو رجل قوي، وفي متوسط العمر، ويظهر عليه السمات السامية. لم يقدم لنا دليم قهوة أو أي منعشات أخرى، وذلك بسبب الصيام ولم أعطله طويلاً عن رغبته في العودة إلى يعض لينعم باستراحة الظهيرة وقيلولتها. ومن جهة أخرى لقد كان كثير الحماس، في أن يمدني بمرشدين ممتازين وذلك لاستكشاف إقليمه وقد أصر على أن أعده بزيارة أخرى في وطنه الخاص بعد عودتي من ظهران.

ما كدت أستقر في المعسكر حتى وصل أحد عبيده واسمه شعبان ومعه شاتان قد أرسلهما لنا سيده بغرض إعداد عشائنا. أكرمته -بالطبع- بالبقشيش العادي وأدهشني أنه رفض أن يأخذه. لم يكن هذا بالأمر المألوف، غير أنه متوقع. كان هذا الرجل هو نفسه الذي كلفه الأمير في غيابه، مع أوامر مشددة، أن يقوم بتأمين أحسن المرشدين المتوفرين لخدمتي. لقد زارني شعبان عدة مرات أثناء فترة الظهيرة وبرهن لي على أنه شخص يجمع بين قوة الشخصية وبين السلوك الجذاب. وبرغم أنه مصنف ضمن طبقة العبيد وهو بالفعل زنجي الأصل، إلاَّ أنه يبدو في تطبيق سلطات سيده وكأنه جبل على ذلك. أخبرني أن يعض تبعد مسافة ساعة سفر من حرجة، لنقل خمسة أميال في بلاد صعبة كهذه.

كان هنالك القليل من الظل حول المعسكر، وكانت استلقاءة القيلولة عند الظهر كثيرة التقطع وذلك بسبب أشعة الشمس التي كانت تتخلل الموانع التي وضعت في طريقها. كنت أحس بالإرهاق إما نتيجة ذلك، أو بسبب الصيام، وخاصة حرماني من التدخين، عند نهاية فترة العصر، وقد كنت سعيداً بمغيب الشمس في ذلك اليوم الأول من رمضان. لقد أسيء طبخ شاة الأمير للأسف بواسطة زملائي وكان عشاؤنا فاشلاً. أطبق المساء في دفئه تحت سماء ملبدة بالغيوم وهو الأمر الذي تداخل إلى حد ما مع ملاحظاتي للنجوم، ثم برد الجو في وقت متأخر من الليل، وسقطت علينا بعض درجات من الصقيع. كانت أقصى درجة حرارة في الظل عند فترة ما بعد الظهر حوالي ٧٢ درجة فقط، وكانت حرجة عند ارتفاع ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. تنهض القرية، وهذا كل ما فيها، من الجانب الأيسر لمسيلها فوق منحدر لطيف والذي من عند قمته بدت منازلها ذات الثلاثة طوابق شديدة الجاذبية. يقع السوق ناحية الغرب من القرية في مكان واسع

مكشوف محـاط بجلاميد جرانيـتية. اختلط اللون الرمادي لهـذه الصخور مع لون البناء الداكن البازلتي للقرية ومع جدرانها المتبقـية على امتداد المسيل، لتصنع صورة كئـيبة. تدعم هذا المظـهر الكئيب قـربة من الجبال البـركانية الداكنـة، الناهضة في معظم أجزائها إلى شريط مستوى مسطح عند القمة يطل على، أو بالقرب من، لج تهامـة. ويحمل إلى جـانب ذلك قرى مـشرف، ونطفـه، وجوعان، وقـلح بهذا الترتيب من الشـمال إلى الجنوب، وقد ورد ذكـرها. كانت أبرز السمـات للجانب المرئي من سلسلة الجبال وفي ترتيب تجاه الجنوب هي أبا ثول، وأبا صبر، وسعدي، وليطان وحمَّل -تقع كلهـا تجاه الجنوب من حرجة- ثم شيـبة. يبدو، من بين هذه القرى، أن سعدي وشيبة مميزتان وقد علّمتهما لكي أقوم بزيارتهما.

ربما كان مسـيل حرجة هو الذي أشيـر إليه من قبل باسم ضيـسار أو هو فرع منه، عبرنا سلسلة منخفضة، عندما واصلنا السـير في الصباح كانت تفصل حرجة عن عقـيقـة شعيب والذي عن طريـقه وصلنا إلى قرى آل طويـل التي ورد ذكرها تتكون من بحير وبصرة إلخ إلخ. ذلك بكونها تقع على أسفل المجرى حيث يتصل مع رحة الذي يقع الآن ناحيـة اليسار لطريقنا وليس هو بالبعيد كـثيراً، إلى جانب قرية أخـرى تسمى قـروات، التي تشاهد إلى البـعيـد في مجـراه، وقرية جـهيم الصغيرة التي تقع أمامـنا على جانبه الأيسر. قابلتنا هنا فتاة كانت مـتسلقة لشجرة طلح طويلة، وكانت تقطع بالفأس أغـصانا كبيرة منها توفـر العلف لقطيع ماعزها الذي تجمع أسفل الشجـرة، والذي كان يلتقط الأوراق العصارية الصغيـرة وبشهية واضحة. تمكن الملاحـظة الآن وبسهولة كيف أن مثل هذه الـبلاد من خلال سلوك أجيال مهملة قد أصبحت مـعرّاة من غاباتها. سيكون من عديم الجدوى بالطبع أن نعترض على ما تقوم به هذه الفتاة، فهي بعد كل هذا مسؤولة عن إطعام قطيعها.

تقع قرية آل سواد عند معبر عين الوعل، بالقرب من انبعاج التقائه مع رحة، على بعد نصف الميل باتجاه أعلى الوادي وكانت القرى الصغيرة المماثلة هي آل مونس ومحجر القضا وكلاهما أسفل منا. كما تقع إلى مسافة في آل شماخ مجموعة صغيرة من المنازل، مقابل رحة، وتكون أطلال آل حملة إلى أعلى منها وعلى الجانب نفسه. كان الوادي ممتلئاً بكثافة بأشجار طلح قديمة طويلة والتي حلقت فوقها البلابل الكثيرة، وقد استغرقت في التفكير إن كان النقار الخشب الذي كنت قد اكتشفته من قبل يصل بعيداً إلى هذا الجنوب. وصلنا بعد مسيرة دقائق قليلة إلى آل حريج وآل جهيم (ابن جعدان). تقع هاتان القريتان في مسيل صغير والذي من عند رأسه هبطنا إلى جانب الوادي رحة مرة أخرى بالقرب من آل حيان وسرعان ما وصلنا إلى القرية الطويلة المتعرجة واسمها قروات. استقرت في مقابل هذا المكان وفي مسيل يأتي منحدراً ناحية الجانب الأيمن لرحة، القريتان الصغيرتان، وهما هجرة وآل باهر من فوقها.

يدخل الوادي العريض المسمى وادي حبيت، من عند النهاية أعلى الوادي باتجاه قروات، على ارتفاع ٧٢٠٠ قدم فوق سطح البحر، إلى رحة وعلى جانبه الأيسر. يقود طريق هام يقع أعلى هذا الوادي، ماراً بقرية آل عبدالله، والتي تشتمل على ثلاث قرى صغيرة، ثم صمعة وتقع أعلاها، ثم إلى ممر عقبة شراغب عند قدم سعدي. هذا هو أفضل وأيسر طريق من بين كل الطرق التي تقود إلى تهامة جنوب منطقة أبها وسأترك وصفه إلى الوقت المناسب، ذلك لأنني سأسلكه في نهاية الأمر في طريقي إلى الساحل.

كان لدينا عمل آخر يشغلنا في هذه الأثناء، وقد عبرنا رحة إلى قرية حوط التابعة لآل شريف حيث توجد مباني مهيبة غير أنها في معظمها كانت في حالة

مدمرة. توقفت هنا في طريق العودة ولن أذكر شيئاً عن ذلك الآن. يجري الوادي فيما يليها تجاه الجنوب لفترة قبل أن يدور فجأة ناحية الشرق في واجهة جبل شيبة، الذي كان هدفنا المباشر. وقد سلكنا طريقاً مختصراً، لنصل إلى قاعدته، عبر قاعدة المثلث الذي يكوّنه الوادي، وهو يتبع خط شعيب ظفرة، الذي يجري إلى أسفل رحة في حوط.

تقع قرية جزعة على يميننا عند منحنى حاد لرحة، عند مدخل شعيب جيسان من جانب الوادي، وتكون قرية جيسان إلى أعلى الرافد. ذكر مرشدي وهما رجلان قويا البنية من رجال القبائل التابعة لبلاد ابن دليم أن جزعة وهي أول قرية تابعة لسنحان في رحة، بينما كانت كل القرى الصغيرة التي عبرناها حتى حوط تابعة إلى آل شريف. لقد كان هذا محيراً لي، ذلك لأنني توقعت أن يكون آل شريف فخذاً من سنحان وبعد إعادة التفكير توصلت إلى الاستنتاج بأن هذا يجب أن يكون هكذا، علماً بأن الشريف، وهو القسم الذي يتبعه الرئيس، يمكن النظر إليه كفرع مستقل لقحطان، مثله مثل سنحان وعبيدة. يجب أن أعترف بأنني غير متأكد من ذلك. كنت قد رأيت قرية آل فضل الصغيرة وذلك عندما وصلنا إلى جانب الوادي الأيمن لرحة مرة أخرى، وتقع على الجانب المقابل، على مسافة نصف الميل عند قاعدة شيبة. اعترض طريقنا المسيل الصغير المسمى عطيف وتقع عليه قرية مخروقة قليلاً باتجاه أعلى الوادي، وذلك قبل أن نصل إلى دهشان في رحة نفسها حيث ترجلنا لنبدأ الصعود.

كان ارتفاع الوادي ٧٣٠٠ قدم وتقع قمة شيبة ناحية الجنوب من موقعنا وهي شامخة فوق رؤوسنا. كانت حقول دهشان ذات المساطب قائمة في الجزء الأسفل من جانب التل مع جدران متبقية ترتفع إلى عشرة أقدام، واحتلت القرية الصغيرة

الثانية مستوى أعلى قليلاً، بينما يمكن رؤية ابن يصبة على الجانب الأيسر لرحة على مسافة ميل واحد باتجاه أعلى الوادي. كانت هنالك بعض أشجار الفاكهة بالقرب من الوادي في هذه الأرض التي تحتوي أيضاً على حقول ذرة صفراء كان معظمها قد تم حرثه حديثاً، والتي كان السير فوقها صعباً غير أنه ليس بالسطح المنحدر. كان الجزء الأول من الصعود إلى أعلى تجاه الصخرة الحمراء عند قاعدة الجبال البركانية، وقد وصلنا إلى موقع التماس بين الاثنين – وهو خط طويل مستقيم حاد يقع على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم.

كانت كتلة التل فيما يلي هذه من بازلت شبيه بذلك الذي شاهدناه في قرن سبط، وكان مركباً عمودياً ويبدو أنه من المحتمل أن تكون كل سلسلة السراة من عند قعم العبيدة جنوباً هي من نوعية التكوين نفسه، بينما يوجد أيضاً سبب للاعتقاد بأن الشريط التحتي المحمر البياض يحتوي على البوكسيت. لم تكن هنالك صعوبة في التسلق وذلك لأن مرشدي كانا يعرفان الطريق جيداً، وقد وصلنا إلى قمة سفلى لقمة الهضبة العالية الواسعة، على ارتفاع ٧٨٥٠ قدماً فوق سطح البحر، وذلك في خلال ٤٠ دقيقة من عند القاعدة.

يمكننا الآن أن نسير بسهولة عبر المنحدر اللطيف إلى قاعدة القمة الحقيقية، ومرة أخرى وجدنا الصعود سهلاً، وقد استغرق إكمالنا لكل المهمة حتى القمة ٦٥ دقيقة من عند مجرى رحة، حوالي ١٠٠٠ قدم، وذلك لأن القمة تقف على ارتفاع ٨٣٠٠ قدم فوق سطح البحر. وقد وجدنا عليها مصلى وكانت بعض جدرانه ترتفع إلى ثلاثة أقدام غير أننا لم نجد محراب القبلة التي تقول عنها الروايات المحلية، كما يقول مرشديَّ، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد زارها وصلى فيها! ويقع بالقرب من المصلى تذكار قديم، عبارة عن لوح صخري عليه نقوش وصور تمثل رمّاحين ممتطين.

كان المنظر من هذه القمة عظيماً بمعنى الكلمة ويدفع للرهبة، لقد قمت بمراجعة بوصلتي في كل من حرجة وحوط ودخفة وقد وجدت أنها كانت تعمل طبيعياً وقد أصبح بإمكاني مواصلة العمل بها دون مخاوف في بقية مسوحاتي. فوق يصبة تعرج مجرى رحة حول قاعدة شيبة وقد انتشرت فوقه خمس قرى صغيرة التابعة لآل الأشعف على امتداده من ناحية الشمال الشرقي إلى ناحية شرق الشمال الشرقي على بعد ميل ونصف من مكاننا في خط مباشر. وعلى بعد المسافة نفسها كما تقع في رحة أيضاً قرية آل ملعب ومن فوقها قرية آل عوران الصغيرة. تقع في مسيل شعبان مسعود الذي يهبط من عند عرن قعمة القلح إلى رحة قليلاً أعلى آل ملعب، قريتان صغيرتان وهما آل خاري وآل الشعب التي تليها من أسفلها.

لم نستطع رؤية أي من قرى رحة أعلى آل عوران من عند هذه القمة، وذلك لأنها كلها كانت محجوبة بكتلة الجبال. يجدر بي أن أقدم قصتها هنا، وقد رأيتها أثناء عودتي إلى أسفل من المضيق الجنوبي لشيبة الذي كان يسيطر على منظر كامل لرحة إلى عند رأسها في قمة مسورة قليلاً ناحية الجنوب الشرقي. كانت هذه البقعة على بعد ٣٠٠ ياردة من القمة وفي ذلك الاتجاه. تقع أولى القرى الصغرى التابعة لرحة وتكون أعلى آل عوران إلى الشرق من موقعنا وعلى بعد ميل ونصف الميل في خط مباشر، وتقع قرية آل ابن علي ومعها آل جهلان على مسافة نصف الميل أعلى منها وتقع قرية أهل بقعان إلى أعلى أكثر، حيث يدور الوادي بعنف ناحية الغرب في تدرج منحدر. كما تقع قرية ومزارع آل لوي في هذا الامتداد الذي يصل طوله إلى ميل ونصف الميل قبل أن يدور مرة أخرى ناحية الجنوب ليصعد للمرة الأخيرة. نستطيع أيضاً رؤية أجزاء من صفرا وعيفه على قمة

الوادي، وهما أعلى من آل لوي، حيث تتجمع مسايل مسورة لتكونه. يتضح للقارئ من هذا أن وادي رحة، من رأسه إلى محيط فيض هو عبارة عن منظر لمناطق مأهولة باستمرار ومشغولون بالزراعة التي يقوم بها عدد قليل ومبعثر من السكان الذين يعيشون في مجموعات صغيرة ونادراً ما يزيد حجمها عن الأسرة الواحدة.

لنعد الآن إلى المنظر العام من عند القمة ولو من على بعد أمكننا الآن أن نرى، بعض معالم المرتفعات العليا لوادي يعض داخل الحاجز الجبلي. تقع هذه المعالم فعلياً تجاه الشمال من عند موقعنا، وقليلاً ناحية الغرب وكانت أعلى القرى هي آل عباس التي تقف على صخرة تبدو لصدع عميق في الجبل عند قاعدة القمة الأعلى. يمر هذا المجرى الصخري العميق بآل شارد ثم كانت بالتتابع بعد ذلك قرى آل قبس وشرمان وآل صيت مع قرى صغيرة أخرى لا ترى، وذلك لأن المسيل يدور إلى أسفل حول قرية آل تيس حين دخوله حوض رحة. يمكن رؤية الجزء الأعلى من وادي محلة القريب من هنا، وتقع على جانبه قريتا ضبعة وعقلة (آل زرقان).

يكفي هذا لمسح المناطق المأهولة التي يسكنها الإنسان. لم تكن بدر نفسها مرئية لنا غير أن قرية قرن سبط كانت بارزة. لقد حملت كل من سلسلة عرف وسلسلة حرقان خط الأفق الشرقي إلى مبنى البيت وإلى دخفة على جانب الوادي الأيمن لحبونا وكلاهما يطل على حضرة. كان المنظر قميئاً في ذلك الاتجاه بصفة عامة وناحية الجنوب، فيما عدا القمة الجذابة التي ترى في المجال الرئيس إلى أسفل قرية مسورة، ويعرف باسم رميح ويشبه في شكله أحد الأهرامات المدرجة في مصر. انتشر الوتر لجبال خولان العالية من جهة الشرق تقريباً إلى الجنوب

الشرقي ثم إلى الجنوب الغـربي، وبدا رائعاً غير أنه يقع إلى البعـيد حيث لا ترى تفاصيله. لا حاجة لي للحـديث عن المنظر الشمالي أكثر من ذلك، وذلك لأنه لا توجد سمات رئيـسة فيه لم ترد من قبل في قصـتي. يترك هذا المجال للربع الذي يقع بين الجنوب الغـربي والشمـال الغربي – وهو منظر رائع بمعـنى الكلمة لجـبال عالية ولسلاسل عظيمـة متدحرجة ذات أودية عميقة ومـضايق خطرة تبدأ كلها من تحت أقدامنا وتمتد إلى البـعيد إلى مرمى البصر وذلك لأننا لم نر سـهل تهامة من ورائها فضلاً عن رؤية البحر. تنبع كل هذه الأودية والصدوع والشقوق التي تشاهد باتجاه الغرب، من عند هذا الحاجـز الجبلي العظيم الذي يرتفع إلى حوالي ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر.

يشاهد رأس وادي بيش من عند الحدود الشمالية لمنظر الجرف، وهو يأتي من سلسلة من الصـدوع والمسايل التي تجري مـنسابة إلى أسفل من عنـد طرف الحلقة التي تتكون من الجوانب الغربية لكل من نطفـة، وثروع، ونودان، وكتفة، وليتان، وسعدي، وتقع القرية الصغيرة المنعزلة التي تسمى جوا عند قاعدة كتفة، غير أنني سأكـتب عن وادي بيش بتفاصـيل أكثر في فصـل آخر. كشف الامتـداد الأمامي للجرف، عند النهاية إلى اليسار لهـذا الوتر، وفي اتجاه الغرب، عن منظر للشريط الطويل لقمـة السراة يمتـد إلى البعيـد، ناحية مـرتفعـات أبها، والذي توجد فـيه سلسلتان بارزتـان بهما قـمم عالية، ويجـهلهما مـرشداي، وقد أعـادا إليّ ذكرى تمنية. وقد ارتفعت أمامـهما سلسلتا الجبل الأسود وقهرة، كمـا أسماها مرشداي، برزت جيـسان الغـربية، من عند ليـتان،الذي ورد ذكـره، منطلقة من عنـد قاسم مشترك مع مسيل بالاسم نفسه يتجه إلى أسفل، إلى رحة، مائلاً عبر حافة منحدر الجرف عند مروره بأكتـاف شيبة الخارجية لينبـعج في رأس شعب شحوة الذي يقع

أسفلنا (يقبل من جهة الجنوب)، قليلاً فوق التقائه مع وادي بيش، في المكان الذي يدخل منه مضيق ضلع إلى النظام نفسه. يتكوَّن المنظر الذي يشاهد أمامنا، حقيقة، من سلسلة من سلاسل متقاطعة متوازية متجهة نحو مجرى بيش على الجانبين. شمخت القمة النبيلة لفيفا إلى البعيد، وهي أعلى من تلك القمم التي تشاهد على الجانب الأيسر من بيش وتتكون من: حمار، وغول، وأثيث، وغيرها -أي تجاه جنوب الجنوب الغربي- ومعها شقيقاتها العملاقة والتي كانت أسماؤها غير معروفة لمرشدي.

كانت الساعة الثالثة عصراً قبل أن ننتهي من مهمتنا في شيبة ونبدأ نازلين المنحدرات الجنوبية اللطيفة، المتجهة ناحية قرية رحة التابعة لأهل لوي. واصلنا سيرنا على الأقدام مدة ساعة إلى المجرى، الذي كان ارتفاعه هنا ٧٧٠٠ قدم فوق سطح البحر، عند منتصف المسافة بينه وبين القرية العليا من قريتي بقعان، وكانت كل منهما على مسافة نصف الميل من موقعنا. وجدنا جمالنا تنتظر بصبر، ثم عبرنا منحنى الوادي وكنا نسافر بصعوبة فوق الصخور البركانية. كان كل الوادي أعلى من بقعان ممتلئاً بحقول الذرة الصفراء والشعير وكلها جاهزة للحصاد. كانت بقية الحقول غير جاهزة بعد وكان الدخن نصفه مكدس ونصفه الآخر ينتظر المنجل. كما كان هنالك الكثير من أشجار التين وبعض أشجار الرمان المبعثرة وأشجار أخرى.

تتبعنا مجرى الوادي الذي يتجه ناحية الجنوب الشرقي حينما عدنا إليه مرة أخرى، والذي لا يزال يخترق حقول الشعير والدخن والذي كانت فيه الطبقة المحمرة البياض (بوكسيت) بارزة عند قاعدة منحدراته السهلة البازلتية، على الجانبين. استدار المجرى أكثر ناحية الجنوب وقد انحصر عند المنحنى ومن أعلاه

بآبار من بازلت والتي تقع فوقها مجموعات من شجيرات العثرب وهي مزهرة، ووردية وجميلة جداً. كان لون الرمال في المجرى في هذه اللحظة أسود عند وأسفل موقع التقاء ثلاثة شعيبات تكوِّن رأس رحة. هي: شغبة على اليسار، وأبتر في الوسط، وعيفة على اليمين، مكوِّنة في موقع التقائها حوضاً ضحلاً. وصلنا بعد مسيرة خمس دقائق إلى أعلى مجرى عيفة الذي كان مكسواً بحقول الشعير إلى حدود القرية، وصلنا كذلك إلى نهاية عمل اليوم. كان معسكرنا قد تم إعداده فوق أرض غير مزروعة على بعد ٢٠٠ ياردة من حد القرية الصغيرة وبعيداً عن عمليات الطبخ التي كانت تجري قبل غروب الشمس لهذا اليوم من رمضان. كانت هذه مسيرة يوم كامل لبعض رفاقنا تحت ظروف الصيام، غير أنني فيما عدا الامتناع عن التدخين، لم أحسّ بأي مضايقة ولما كان لدينا أكثر من ساعة كاملة قبل الإفطار فقد انطلقت في جولة استكشافية.

لا يمكن تمييز منازل القرية بين بساتينها ما عدا برج مربع بارز. كانت تحتوي على أشجار تين متخشبة، غير أنني لاحظت أن مواد بناء المنازل هنا، كما في العديد من القرى الصغيرة إلى أسفل، تحتوي على نسبة معتبرة من الصخر المحمر مع شيء من البياض ليخفف كآبة البازلت الشائع. انتشرت حقول الذرة الصفراء عبر الوادي، مع قليل من مساطب ترابية عند رأسه تكونت من اتحاد مسيلين صغيرين، ينحدران من عند كتف مسورة، ومحجر من جهة الغرب ومن هيجة من جهة الجنوب الشرقي. يصرف كل من أبتر وشغبة إلى أسفل، سفوح مسورة تجاه الجنوب الشرقي، غير أن حوض عيفة محصور داخل دائرة من تلال منخفضة، حددت علينا مجال الرؤيا في كل الاتجاهات. كان الارتفاع عند عيفة نفسها حوالي ٧٨٠٠ قدم فوق سطح البحر، بينما كانت رؤوس كل من محجر وهيجة وكلاهما

معاً يعدان الرأس المؤثر لوادي رحة ومن ثم لوادي تثليث، فهما يرتفعان فوق ذلك بحوالي ٢٠٠ قدم.

وصلنا الآن إلى ارتفاع ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر لأقصى حد ممكن لتثليث وهو أعظم وأطول وادٍ في الجزيرة العربية، يبدأ من هنا على مرأى من البحر الأحمر -في يوم صافٍ جميل-، ويجري شمالاً مسافة ٣٠٠ ميل ثم يدور ناحية الجنوب الشرقي عبر وادي الدواسر والربع الخالي على الخليج العربي. من المؤكد أن الطول الإجمالي لهذا الوادي أكثر من ١٠٠٠ ميل. لقد رأيت الآن ثلاثة أقسام معتبرة من تثليث في مساره شمالاً، والآن ولأول مرة يمكن وضع مساره على الخريطة مع درجة من الدقة. يتقاسم شعيب شقبة مستجمع الماء الذي يقع على مسافة الميل الواحد من هذه المنابع، مع وادي حمرة وهو واحد من المصادر العديدة لوادي حبونا. لم ير أوربي غيري أي جزء من هذين الواديين العظيمين. شعرت بنشوة الارتياح وأنا أرى شمس يوم صيامنا الثاني وهي تغرب.

بدأت السحب تتجمع في السماء قبل الغروب، وقد سقطت بعض القطرات بالفعل. أفطرنا بالأسلوب التقليدي، حبات من التمر وفناجين من القهوة حول نار المعسكر قبل صلاة المغرب وقبل العشاء، وكنا نجمعهما دائماً أثناء السفر. ثم تعشينا وقد اجتمع كل من القمر والزهرة والمشتري في مثلث منفرج الزاوية في مساحة خالية تقع بين السحب وكأنها تراقب ما كنا نقوم به. اكتظت السماء بالسحب سريعاً، وكان عليَّ أن ألزم الصبر حتى ينكشف السحاب عند منتصف الليل لأقوم بملاحظاتي حول النجوم. أدرك النوم كل المعسكر وكل القرية الصغيرة بينما ظللت أنا ومعي سعد نعد المزواة لنثبت موقع تثليث.

صحونا مبكرين لنتناول السحور قبل بداية صيام يوم جديد وعدنا إلى نومنا بعد أداء صلاة الفجر وكانت الشمس قد ارتفعت عندما دبت حركتنا مرة أخرى. لم يكن الجو بارداً أثناء الليل حيث كانت الدرجة الدنيا ٣٧ درجة. بدأت صعود مسورة مع مرشدي بمجرد أن أحسسنا بدفء شمس الصباح، تاركين البقية يخلدون للراحة في المعسكر إلى حين عودتنا. لقد أزعجنا سرباً من طائر الحجل كان داخل حقول الذرة الصفراء أثناء سيرنا عبر مسيل محجر الصعب، كانت أشجار التين ممتلئة بمجموعة من طيور السوادية والبلابل، ويبدو أنها كانت تستمتع بالتقاط الحبوب. كانت طيور الأبلق وافرة على سفوح الصخور وعلى أطراف المزارع، متضمنة النوعين النموذجي والجنوب الغربي (O.S.bottae). (O.lugentoides) وجدت عند رأس المسيل منبع محجر آخر، ناحية اليمين، يجري أسفل الجانب الشمالي لسلسلة عيفة ليتصل مع رحة عند المنحنى الحاد أعلى قرية آل لوي. تتبعنا الآن الكتف الأسفل لمسورة تجاه الجنوب مارين برؤوس هيجة، ويقع الجرف الرئيس لها على يميننا، يسقط في مدرجات منحدرة من صخور سوداء إلى مضيق شعيب أول والذي كان يزدهر بالشجيرات والأشجار الخضراء. كما كانت الهاوية كالحة المنظر.

وصلنا الآن إلى ما يبدو أنه المستوى العام لحاجز قمة السراة، الذي يكوِّن حافة الجرف وقد برزت فيه النقاط العالية مثل شيبة ومسورة وكأنها أهرامات عظيمة.

قابلتنا فتاة راعية أثناء هبوطنا إلى قاعدة مسورة، وهي من قبيلة سنحان وكانت ترعى قطيع أغنامها في هذه المرتفعات المنعزلة وقد تبادلنا معها التحيات ولولا الصيام لكان صاحَبَها جرعات من اللبن. كنا على ارتفاع ٨١٠٠ قدم، عند

هذا الموقع، فوق سطح البحر ولم نجد صعوبة في الصعود إلى القمة التي ترتفع إلى ٤٠٠ قدم. كانت القمة عبارة عن مسطبة مسطحة صغيرة تنتشر عليها جلاميد ضخمة وألواح من بازلت يصل قطرها إلى حوالي ١٠٠٠ ياردة. كانت الصخور هنا مغناطيسية للأسف، كتلك التي شاهدناها في قرن سبط، وقد أحسست بعدم الارتياح لأداء بوصلتي واتجاهاتها غير أن المنظر مرة أخرى كان عظيماً.

كان منظر حاجز السراة، كما يرى من هنا، ناحية الشمال، منسقاً على شريط يبدأ من عند شيبة إلى الشمال الغربي من موقعنا وليس بالبعيد منا وينتهي عند مرتفعات تمنية وأبها ناحية غرب الشمال الغربي، بينما توجد في الاتجاه المعاكس السلسلة العالية البركانية التي تسمى مرعة والتي يقال: إنها تطل على بقم من ناحية الغرب، وتقع فعلياً ناحية الجنوب.

ويبدو أن حافة الجرف داخل الأراضي العربية السعودية من عند الحدود في ممر علبن إلى مرتفعات أبها، تكون وتراً لطيفاً، يتجه ناحية الجنوب الغربي ليحتضن البانوراما الرائعة لقمم الجبال والسلاسل العالية والمضايق العميقة التي تؤلف مرتفعات تهامة، هذه المساحة التي تختلف كثيراً من السراة العارية من حيث الطقس ومن حيث مجموعاتها النباتية والحيوانية. أنها تنتمي إلى الإقليم الأثيوبي تحت المداري ولا تنتمي إلى الجزيرة العربية، وتبدو كأنها شريحة من الجبال الأثيوبية قد تركت على الجانب الخطأ للمياه وذلك حينما تكون وادي الصدع العظيم بعد مخاض الأرض في العصور القديمة. وقف فيفا، من هذه الجبال العظيمة، في شموخ ومعه كل من حشر ومنجد وزهوان وقمم عالية أخرى كثيرة وسوف أتجول بينها كثيراً ولأسابيع كثيرة.

يجري الشريان العظيم لوادي بيش في وسط هذه المساحة الضخمة مع عروق جانبية له تربطه مع الجبال من على الجانبين. يصرف جزؤه الشمالي ناحية البحر عن طريق وادي بني شعبة متجهاً نحو شعيب ضلع بالقرب من أبها. كان الشريان الرئيس النائي، فيما يلي هذا، ويقع خارج نطاق الرؤيا، هو وادي حالي، بينما في الجنوب وداخل حدود مجال الرؤيا، فإن المرتفعات كانت مجرّحة بروافد وادي جازان. سيتم وصف كل هذه بتفاصيل أكثر في فصول لاحقة.

تقع المنابع العليا لوادي حبونا على الجانب الآخر، ناحية شرق ضلع السراة، وذات أهمية كبيرة لي ذلك لأننا سنهبط إلى هناك قريباً بمجرد فراغنا من مسحها من أعلى، وهي تنهض في دائرة تتجه ناحية الشرق للجبل عند ما يقدر بست نقاط ويجري عبر الهضبة الحجرية الرملية المكسرة وغير المنسقة إلى مضايق صخرية تقود إلى أسفل إلى حيث الوادي العظيم. نبدأ برأس شعيب مقم الذي يقع عند سفح قرن سبط – أو بدلاً من ذلك من عند رأس خنق -بدر- قب فيما يليه- فإن أكثر المنابع أهمية هي:

١- سلسلة مرحض وتقع على بعد أربعة أميال من مسورة، وعرن جنوبي قعمة القلح الذي يكون رأس وادي حمرة وهو ينساب إلى قرى طلحة.

٢- الفرع الشرقي لمسيل شغبة الذي ينحدر إلى وادي حمرة عند سفح مسورة.

٣- شعيب قحيث وهو مسيل على الجانب الشمالي لمسورة، يصعد بالكاد نصف الميل عن القمة، ويجري متعارضاً أسفل الجبال ليتصل مع شعيب الدرة الذي يهبط من قمة رميح من عند القريتين التوأم التابعتين لآل ثابت، ومن عندهما ينساب ليتصل مع طلحة أعلى منفذه بين حقول وبساتين كل من محيجرى وطرف الضراع.

٤- شعيب فروان، وبه قرية ابن دهيش الصغيرة (آل فروان) وتقع على جانبه الأيسر وينساب مستقيماً إلى موقع آخر من جوانب شثاث. تتقارب كل هذه عند مضيق ضيقة الذي يقع مباشرة أسفل طرف الضراع لتكون مجرى أم طرا، والقرى التي تقع أعلاه، والتي تشتمل على طلحة وغيرها بالإضافة إلى تلك التي ورد ذكرها، وتسمى كلها في شمولية «الغيل». يمكن بالكاد رؤية مجرى ظهران من هذا الموقع، ويمكن تأخير الحديث عن اتصاله مع الروافد المختلفة فيما يليه ومع حبونا إلى الفصل الآتي.

أشرت إلى أن سلسلة السراة وقممها كانت بصفة عامة عارية، وأن التأثير الذي تتركه في المرء هو الجفاف مقارنة مع الغطاء النباتي الثري للأودية ولسفوح الجبال الواقعة ناحية الغرب. كانت هنالك بعض أشجار العرعر، حتى في الأطراف السفلى من مسورة، وليس، حسب معرفتي، في شيبة التي لم أرها منذ مغادرتي مقاطعة أبها، كما كان هنالك غطاء نباتي خفيض وبكثرة خاصة في المسايل المناسبة له وفي الصدوع منها أشجار الطلح والشعث والجبر والثول والطباق والحوشة والمستعار (نبات حساس) والعثرب وردي الأزهار. كان النباتان الأخيران متوافرين بكثرة خاصة حول حقول عيفة التي قد عدنا إليها الآن وذلك لمواصلة مسيرتنا إلى الحوض الأعلى لحبونا. لقد اكتشفنا، على الأقل، منابع تثليث، وقمنا بوضع الحل للمشكلة التي كانت قد شغلت الجغرافيين مدة قرن كامل.